الدليل الخامس

العصمة من القتل

بعد بحث طويل عن تبيان مصدر القرآن ، رأينا أن القرآن وعد محمداً وعوداً كثيرة واستطاع تنفيذها لأنها صادرة عن قوة فعالة وأعظم هذه الوعود ، هذا الوعد الخطير وهو العصمة من القتل ، والحماية لشخصية الرسول ، على الرغم من تضافر الحوادث المبيتة لهدر دمه ونرى القرآن بعده قائلاً ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾[1] .

إن هذا وايم الله ضمان لا يملكه بشر ، ولو كان ملكاً محجباً تسير الحفظة من بين يديه ومن خلفه ، فكم رأينا ورأى الناس من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد الغيلة ، وهم في مواكبهم ، يحيط بهم الجند والأعوان ، ولكن انظر مدى ثقة الرسول بهذا الوعد : « روى الترمذي والحاكم عن عائشة قال : كان النبي يُحرَس بالليل ، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله » وحقاً لقد عصمه الله منهم في أكثر

---

(١) المائدة/ ١٧ .

من خمسة مواضع كان خطر الموت أقرب إليه من شراك نعله ، ولم يكن له فيها عاصم إلا الله وحده .

ومن ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة ورواه مسلم في صحيحه عن جابر قال : كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرقاع نزل النبي تحت شجرة ، وعلق سيفه فيها ، فجاء رجل من المشركين ، فأخذ السيف ، فاخترطه وقال للنبي ﷺ : أتخافني ؟ قال : لا . قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله يمنعني منك ، ضع السيف ، فوضعه . وحسبك أن تعلم أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف .

ومن ذلك هجرته بعد اتفاق القرشيين لقتله ، وإجماعهم على ذلك ، وبدأ التخطيط ولكن العصمة حالت بينهم وبينه فقال ابن إسحٰق :

لما رأت قريش أن رسول الله قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، وعرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة فحذروا من خروج رسول الله ﷺ ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون ما يصنعون في أمر رسول الله حين خافوه .

فلما اجتمعوا جعلوا يقلبون وجوه الرأي فيما بينهم . . .

أيحبسونه في الحديد ويغلقون عليه باباً ثم يتربصون به ما أصاب أشباهه من الشعراء . . .؟ ولكن هذا الرأي لم يلق سميعاً ، فقد خافوا أن يأتي إليه أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فيخلصوه وينتزعوه من بين أيديهم . . . أيخرجونه من ديارهم ثم يتركونه يذهب حيث شاء . . .؟ ولكن هذا الرأي كذلك لم يلق أذناً صاغية ، فقد خافوا حلاوة منطقه ، وسحر بيانه وقدرته على اجتذاب القلوب مما يجعل له أنصاراً في كل مكان يذهب إليه ، فينتشر أمره ويشتد ساعده ، ثم يكون هو ومن يناصره قوة تهدد أمنهم وطمأنينتهم . . . أيقتلونه . . .؟ ولكن كيف يقتلونه وقد أحاطه بنو عبد مناف من جميع نواحيه ؟ ومن أي قبيلة يمكن أن يكون القاتل ؟ وأي قبيلة تستطيع أن تتصدى لعداء بني عبد مناف ؟ وما زالوا يقدرون ويدبرون ، ويتبادلون وجوه الرأي فيما بينهم حتى اتفقوا على أن يقتلوه بطريقة مأمونة العاقبة . ذلك أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلداً شجاعاً ثم يذهبوا إليه فيضربوه جميعاً بسيوفهم ـ ضربة واحدة ـ فيقتلوه ، فيتفرق بذلك دمه في القبائل كلها ، وإذن لا يستطيع بنو هاشم أن يقاتلوا العرب جميعاً ، فيرضون بالدية ، فيؤدونها إليهم . وبذلك ينتهي أمر محمد ودينه ، وتعود مكة إلى ما كانت عليه من الأمن والطمأنينة وجمع الشمل .

وهكذا دبروا الخطة ورسموا خطوطها ، على أن ينفذوها ليلاً ، ولكن لله تدبيراً فوق تدبيرهم ويداً فوق أيديهم ، فقد أوحى

الله إلى رسوله بما دبروا خفية ، وأعلمه بما كادوا له من كيد ، وأذن له بالهجرة إلى المدينة ، وعرف وقدر أن قريشاً ستوثق الحصار حول داره في الليل ، لتقطع عليه طريق الفرار ، ولا بد أنها سترصد أفواه الطرق ، ومنافذ السير حتى لا يستطيع الخروج من مكة ، وستبذل لتنفيذ خطتها كل جهودها ، وخرج ليلاً بعد أن وضع ابن عمه علياً رضي الله عنه في فراشه تمويهاً للعدو ، وليعطي الناس بقية الودائع التي كانت لأهل قريش ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مكانته من قومه وعظم أمانته .

وهكذا تمت الهجرة ، وفتيان قريش يرصدون دار رسول الله ليقتلوه عند خروجه ، فليس من عادة العرب أن يقتلوا شخصاً في عقر داره ، وتمت العصمة للرسول من القتل ونزلت الآية التي تصف هذه المؤامرة التي أحيكت حول رسول الله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [الأنفال :] .

وكان خروجه في وسط الليل ، والليل مخيم على الفتية الشباب بأستاره . وهذا ما بينه القرآن في قوله : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ [يس : ٧] .

وانطلق رسول الله إلى الغار عاملاً بالأسباب ، ليرشد البشرية

من بعده إلى قيمتها . . . وشاهد الكفار الغار ، ولكن العصمة لاحقته هناك ، فلم يدخلوا إليه على الرغم من وصولهم إلى بابه ، وهنا نرى ثبات رسول الله واطمئنانه ، وكيف أن السكينة قد غمرته ، واليقين ملأ قلبه ، وأحاطه الهدوء من كل جانب ، وكل هذا يدل على مقدار ثقته ويقينه بالعقيدة التي يناضل من أجل تبليغها . . .

ومما يروى أن فتيان قريش لما وصلوا إلى الغار ، وسمع أبو بكر ـ صاحبه في السفر ـ دبيب أقدامهم إزاءه ، اشتد خوف أبي بكر . . . لا على نفسه ولكن على رسول الله . . . حتى بكى . . . فقال يا رسول الله : لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا . . .!! فهدَّأ رسول الله من روع أبي بكر وقال له : لا تحزن إن الله معنا . . . ما ظنك في اثنين الله ثالثهما[1] . . .

ونزلت الآية تفصل هذه المحاورة اللطيفة في قوله تعالى : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة

---

(١) اليقين الذي تمكن من قلبه الكبير، وإيمانه بالعصمة دعاه لقوله لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ومعية الله كانت الحجاب للكفار الذين وصلوا إلى الغار وهي معية الحفظ والطمأنينة . والله يرىٰ ولا يُرىٰ ومعية الله لمحمد ﷺ حجبت الكفار عن رؤيته .

الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وهذا كله ليدل على عمق اليقين لدى رسول الله ، وهل من المنطق السليم أن يختلق الإنسان فكرة ، ثم يصرح بها لحماية نفسه ، ويصدر الآيات بالعصمة لذاته . وأيم الله لو كان محمد مختلقاً ذلك لشدد الحماية على نفسه ، ولطلب من أتباعه بآيات كثيرة أن يدافعوا عنه أكثر من دفاعهم عن عقيدتهم ، بل ثبت أن القرآن صرح بأن محمداً ما هو إلا رسول فإن مات أو قتل فإن الله حي باق وأنى لإنسان يستطيع تعظيم ذاته ثم يهون من أمر نفسه ، ولا تهمه حياته ، بل يأمر الناس بأن يتركوا حراسته ، وهذا عكس ما نشاهده من المصلحين أصحاب العقائد الوضعية ، فهم يحاولون الإكثار من الحرس حفاظاً على حياتهم وأنفسهم . . .

ومن حوادث العصمة هذه الحادثة التي يرويها الثقات « وهي أن أبا جهل ـ وهو من أشد خصوم رسول الله ـ قال : يا معشر قريش إن محمداً قد أبى ما ترون من عيبه ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم !! . . قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد . فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله

ينتظره ، وغدا محمد كما كان يغدو كل يوم ، فكان إذا صلى ، صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، وقام محمد لصلاته ، وقد غدت قريش ، فجلسوا في أنديتهم ، ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه ، رجع منهزماً منتقعاً لونه ، مرعوباً قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده ، وقامت إليه رجال قريش ، فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه ، عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته (القصرة أصل العنق يعني بذلك ضخامة رقبته وطولها) ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بي يريد أن يأكلني . . . !!

فقال ابن اسحق : فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال : ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه) .

وأيم الله هذا دليل آخر من أشد رجل حاقد على دعوة محمد ، دليل من أنصع الدلائل على أن الحق الذي جاء به محمد ليس من عنده ، وإنما هناك يد خارجية ، وقوة إلهية فوق قوته تدافع عنه ، وتحميه ، وإلا كيف نفسر هذه الحادثة الموثوقة ، التي جرت في ربوع قريش . وصار بعد ذلك أبو جهل مهان المكانة ، ضعيف

القيمة ، واتهم بالجبن والتردد ، ولو قيل إن هذا ليس صحيحاً فمن منعه من ضرب محمد . . ؟ أما كان أشد الحاقدين عليه حتى إنه قال : لقد سقيت بغضاً لابن عبد المطلب لو سلط البحر عليه ما أطفأه . . من منعه إذن من قتل رسول الله . . . إن لم تكن العصمة . . . فليجب المكابر الذي لا يرضى بهذه الحادثة . . . إن كان لديه جواب مقنع .

ومن محاولات اغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام ، ما حاكه اليهود ضده في المدينة من مؤامرات للتخلص منه من أجل مصالحهم وزعامتهم ، ومما يروى (أن رسول الله خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر . . . للجوار الذي كان رسول الله قد عقده لهما وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله يستعين في دية ذينك القتيلين ، قالوا : نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله إلى جانب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جماش ـ أحدهم ـ فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ، ورسول الله في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم فجاءه الخبر من السماء بما دبر القوم ، فقام وخرج إلى المدينة ؛ فلما استلبث النبي أصحابه ،

قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب الرسول حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم بما أرادت اليهود من الغدر به ، فأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم) .

وهكذا هم اليهود بالجريمة المنكرة دون أن يظهروا له شيئاً ، وكل ذلك أثناء محادثته لهم ولكن العصمة . . . العصمة ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ . وإن هذا الإنسان الذي لم يأت بخير من وجدانه ولا بإصلاح فردي وإنما جاء مرسلاً بعقيدة شاملة يحمل في طياتها الوعد بحمايته وقد تم له ذلك ، ولو كانت فردية بشرية لما استطاعت حمايته .

وهذه المحاولة الأخيرة التي تمت فى معركة أحد ، ها هو ذا يقاتل أقرب الناس إلى العدو والموت قريب من الجميع ، وما جرت هذه المعركة إلا للخلاص من محمد ، وكان علي رضي الله عنه يقول : كنا إذا حمي الوطيس احتمينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . إن هذا هو اليقين لأنه واثق بأن العصمة والتأييد أتت من خالق الموت والحياة ممن بيده مقاليد الكون . .

وها هو في غزوة حنين ، يركض ببغلته إلى جهة العدو ، فلما أقبل المشركون وأحاطوا به لم ينهزم بل نزل عن بغلته وأخذ يقاتل وكأنه يعرض نفسه لنبالهم وأخذ يصيح : أنا النبي لا كذب أنا ابن

عبد المطلب . (حديث رواه الشيخان) .

فيالها من حياة ملؤها المخاطر ، ولكن وصل إلى شاطئ السلام ، وحقق الله له وعده وعصمه حتى يبلغ الرسالة ، ويؤدي الأمانة ، وينطق كلمة الكمال .

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ .

وليعلن للبشرية بأن الإسلام هو الدين الحق وخاتمة الشرائع . .

ولا بأس أن نختم هذا الفصل بهذه الحادثة الرائعة وهي أنه بعد وفاة عمه أبي طالب دخل إلى البيت الحرام فنثر بعض القرشيين التراب على رأسه ، ومن ثم دخل الرسول بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسل التراب وهي تبكي !! . . . فقال لها : يا بنية لا تبكي ، فإن الله مانع أباك . . .

وايم الله ما يقول هذه الكلمة إلا نبي مرسل ، وسع التاريخ في نفسه الكبيرة قبل أن يوجد التاريخ في الدنيا ، فكلمته هي الإيمان والثقة لأنه يتكلم عن يقين .

﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ .